
د. مصطفى ابن حمزة
الخَطِيبُ
وَوَاقِعُ الأُمَّة

الكتاب : الخطيب وواقع الأمة

المؤلـف : الدكتور مصطفى ابن حمزة

الناشـر: مكتبة الطالب / وجدة



رقم الإيداع القانوني: 2001/1344

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لما دعتني وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مشكورة إلى الإسهام في أشغال ندوة الخطباء الأفارقة. واقترحت علي الحديث في موضوع خطيب الجمعة وضرورة معرفته بالواقع المعيش للأمة رحبت بالعرض وشكرت لوزارة الأوقاف حسن ظنها الذي جعلها تتوسم أن يكون إسهامي إضافة مفيدة في عملية ترقية المستوى الخطابي الذي تنهض الوزارة من جهتها بكثير من أعبائه بما تعقده من ندوات ودورات تدريبية لفائدة كثير من الخطباء الذين يلونها وطنيا وجهويا وعالميا، وبما تنشره من بحوث صارت وثائق قيمة ومراجع أصيلة في الباب.

وقد شكرت الله على أن هيأ لي فرصة للقول لأبث هذا الجمع من الخطباء بعض أفكار وخواطر طافت بفكري وأنا أتأمل وضع خطبة الجمعة.

وقد ارتأيت أن أعالج الموضوع من خلال عرض القضايا التالية:

- مدخل عن أهمية الخطبة (عموما) في البناء الحضاري الإسلامي.
- ضرورة انشغال الخطبة بقضية من قضايا المجتمع.
- الخطيب وصلته بالواقع المعيش للأمة.

مدخل:

أهمية الخطبة في البناء الحضاري الإسلامي:

الإسلام كما أراده الله وارتضاه لهذه الأمة نظام حضاري شامل، وصيغة لمجتمع متكامل المقومات التي من أهمها : حدوث التواصل الفكري والاتفاق على نمط معين من السلوك والأخلاق بين الأفراد .

ومن أجل تحقيق هذا المطلب فقد شرع الإسلام إقامة صلاة الجمعة مسبوقة بخطبة يلقيها خطيب ملتزم في ذلك بأهداف الإسلام ومقاصده من إقامة الجمعة ليكون حديثه تعبيراً عن حكم الشرع فيما يطرأ من حوادث ونوازل وليكون توجيهه ضبطا لمسيرة المجتمع على منهاج الإسلام وهديه، خصوصا حينما تعصف بذلك المجتمع عواصف هوج عاتية من تيارات تبتغي اجتثاثه وإحداث القطيعة بينه وبين دينه في إطار التدافع الحضاري المعروف، فلأهمية خطبة الجمعة كان إيجاب شهودها لمن ليس له عذر مانع، وكان الترغيب في الاستعداد لها بالاغتسال والتطيب والتجمل من الآداب المعينة على حضورها في ظروف مريحة .

ولأهمية الخطبة عموما في الدعوة إلى الله فقد اعتنى رسول الله ﷺ -وهو الفصيح الذي تتضاءل أمام بيانه كل فصاحة- باتخاذ خطيب راتب، فكان ثابت بن قيس بن شماس خطيب رسول الله وكان يعرف بخطيب الأنصار كما ذكره أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب [1]. ووصفه الخزاعي في تخريج الدلالات السمعية بأنه كان خطيب رسول الله [2]، وأنه كان جهير الصوت عاليه [3]، وأنه قد تخلف عن مجلس رسول الله ﷺ لما أنزل الله قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾[4].

وقد انتدبه رسول الله ﷺ للرد على عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب تميم، وليس يبعد أن يكون لجهارة صوته مع فصاحته أثر في اختيار رسول الله ﷺ له.

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لابن عبد البر 200/1 - تحقيق محمد علي البجاوي. ط. نهضة مصر.

(2) تخريج الدلالات السمعية - لعلي بن محمد الخزاعي ص: 235 - تحقيق إحسان عباس ط. دار الغرب

(3) الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي 549/7 - دار الفكر - بيروت 1992.

(4) سورة الحجرات، الآية: 2.

ومما يشير إلى أهمية الخطابة في البناء الحضاري الإسلامي أن رسول الله ﷺ قد كان حريصا على الحفاظ على الخطيب مغضيا عن هفواته وسقطاته، وقد أتى ما استوجب به العقاب ادخارا لموهبته للمواقف التي يكون فيها الحسم للكلمة، فقد كان سهيل بن عمرو خطيب قريش والمفاوض عنهم يوم الحديبية، وقد قال عمر لرسول الله ﷺ لما أسر سهيل يوم بدر: أنتزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيبا أبداً، فقال ﷺ: دعه فعسى أن يقوم مقاما تحمده، وقد شاء الله أن يثبت بخطبته القلوب لما مات رسول الله ﷺ وهاج أهل مكة فقام فيهم سهيل خطيبا مثلما قام أبو بكر في أهل المدينة خطيبا فقال: والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها..[1].

وقد ساق الجاحظ في البيان والتبيين خطبته البليغة[2].

وبهذا تحقق إنباء رسول الله ﷺ لعمر، وفي الخبر من الإشارات أن الخطيب يجب أن يعامل بما هو أهل له من الإكرام والتسامح إبقاء على قدرته التعبيرية.

---

(1) الاستيعاب لابن عبد البر – القسم الثاني 669.

(2) البيان والتبيين – للجاحظ.

الخطبة وانشغالها بقضايا الناس:

يؤثر عن أحد علماء العصر قوله: إن أخطر ما تصاب به الأمة الإسلامية أن تتحول العبادات لديها إلى عادات ورسوم مؤداة، وهذا قول لا يخلو من صواب، لأن العبادات حينما تفقد روحها وجوهرها ولا تستهدف غايتها التي شرعت من أجلها، فإنها تتحول إلى ممارسات مظهرية لا يراد بها إلا رفع التكليف بحسب الظاهر لا غير.

وخطبة الجمعة التي هي اللسان الناطق باسم الشرع المعبر عن هديه في النوازل والمستجدات قد يصيبها ما يصيب كل العبادات فتتحول إلى عمل أسبوعي رتيب لا يستهدف أي غاية - ولعل الصحوة الإسلامية بطموحاتها الكبيرة قد أصبحت اليوم تضيق ذرعا بالأسلوب الذي تلقى عليه بعض الخطب فيجعلها ذلك فرصا ضائعة ومناسبات لم تحسن الأمة استثمارها لخيرها.

ويؤكد هذا الانحراف أن تلك الخطب المنتقدة تلقى بصوت رتيب تمطط فيه المقاطع ويحرص فيه على الفواصل ويهدر

فيه المعنى وتعمم فيه التوجيهات ويغيب فيه الواقع فلا تختلف خطبة تلقى في مدينة تعج بالمشاكل والمعضلات عن خطبة ألقيت منذ قرون في قرية وديعة حياتها راكدة - وقد تستبين هذه القطيعة مع الواقع حينما تتوالى الأحداث والوقائع... وتتلاحق لكن الخطبة تظل مع ذلك بعيدة عن ملامسة المستجدات، فقد عرفت الساحة الفكرية في الفترة الأخيرة الماضية دعوات إلى تعديل مدونة الأحوال الشخصية، وأقيمت مؤتمرات المرأة في بكين وفي جهات أخرى وارتفعت نداءات داعية إلى وحدة الأديان، وتنادي الناس إلى التقريب بين المذاهب، وتداعى الناس إلى العولمة، وألمت بالمسلمين ملمات وخطوب جسيمة في شبه جزيرة البلقان وفي شيشينيا وفي كشمير وكزخستان وفلسطين، وفي جهات كثيرة من العالم، فكشفت الظروف العصيبة التي مرت بها الأمة عن جهل الإنسان المسلم بواقع الأمة وبقضاياها المصيرية بل وبمواقع المسلمين وأماكن وجودهم من العالم، فلأول مرة، بعد أحداث جسام أصبح الإنسان يسمع عن وجود قوى للإسلام في البوسنة وفي شيشينيا، وقد كان بإمكان المنبر أن يعرف المسلم بإخوانه وبقضاياهم لأن من المستحيل أن ننشد وحدة فكرية ومصيرية بين المسلمين في ظل الجهل السائد بينهم وفي أجواء الغفلة عن

قضاياهم ومشكلاتهم.

ولعل مرجع هذه السلبية التي أصابت خطبة الجمعة أن بعض الخطباء يجهل مواصفات الخطبة وخصائصها التي من أبرزها انشغالها بقضية وتركيزها على موضوع يراه الخطيب جديراً بأن يفرد له خطبته.

وتتأكد ضرورة انشغال الخطبة بموضوع وقضية من خلال جملة شواهد شرعية وعلمية يمكن الوقوف منها على ما يلي:

1- يرى فريق من شراح الألفاظ أن الخطبة والخطاب كلاهما مأخوذ من الخطب الذي هو الشأن العظيم: يقول السمين الحلبي في كتابه عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لدى تفسيره قول الله تعالى: ﴿وفصل الخطاب﴾[1]، أي ما ينفصل به الأمر بين المتخاصمين في الخصام ونحوه لأن كلا من الخصمين يخاطب خصمه بما ينفعه، وأصل ذلك من الخطب، والخطب الأمر العظيم الذي يحتاج فيه إلى تخاطب، ثم عبر به عن الأمر والشأن فيقال: ما خطبه؟ ومنه الخُطبة والخِطبة، إلا أن الخُطبة اختصت بخطاب ذي وعظ والخِطبة بخطاب ذي طلب

---

(1) سورة ص، الآية: 19.

امرأة تنكح[1].

وعلى هذا فاسم الخطبة من حيث اللغة مشعر بكون المحتوى المخطوب به من قبل الخَطْبِ الذي تهتم به النفس وتعنى به.

ولابد أن تسمو الخطبة إلى أن تكون تعبيراً عن إحساس حاد وإدراك عميق بخطر يتهدد الأمة في وجودها المعنوي، وفي شخصيتها الملتحمة بدينها - والخطبة الأصيلة هي كالشعر الأصيل تماما تمليه شاعرية الشاعر بعيداً عن التصنع فيكون ذوب مشاعر صادقة وخلاصة عواطف جياشة فيضفي عليه دفء الصدق جمالا ورواء ويجعله قادراً على تحريك السواكن من حوله.

2. من الشواهد المنطقية على وجوب تركيز الخطبة على قضية معينة أنهم اشترطوا فيها أن تقوم على ما أسموه بعمود الخطبة، وهو القضية التي يدير عليها الخطيب خطبته، وقد اشترطوا فيه أن يؤسس على مظنونات مشهورات وتسمى الذائعات، أو من مقبولات أو من مختلف فيها، وبهذا كانت الخطبة مباينة للجدل الذي يقوم على أساس الحقائق الثابتة.

واشتراط المناطقة في العمود قيامه على المظنونات أو

---

(1) عمدة الحفاظ - للسمين الحلبي 530/1.

المشهورات يستفاد منه أن الخطبة تتوقع ارتياب المخاطب وتشككه أو جهله بما يخاطب به، وهذا هو الذي يعطي الخطيب فسحة للإتيان بكل وسائل الإقناع كالحوار والتعجب والتأكيد للقول وكالقسم والتبكيت والتشويق وما إليها من الوسائل، فإذا دعا إلى الصدق افترض أن المتلقي متشكك في جدواه فراح يطلب كل سبيل إلى الإقناع فيتلون الخطاب بذلك ويجتذب النفس إلى فضيلة الصدق.

3- إن الخطب غير القارة كخطبة الجمعة كانت تلقى في مواقف عصيبة يحتاج فيها إلى توجيه الناس وإلى إقناعهم، وهكذا ارتبطت بعض الخطب بوقائع خاصة فألقيت قبل خوض المعارك تحميسا للجند وشحذا للهمم - وقد ألقى رسول الله ﷺ بعض خطبه قبل بعض المعارك تحريضا على القتال واستجابة لقول الله تعالى: ﴿ **يا أيها النبيء حرض المومنين على القتال** ﴾[1]. ومن أبرز خطبه التي وعتها كتب السيرة خطبته الموجزة المؤثرة التي ألقاها بين يدي معركة بدر وقال فيها: « والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فتاثر لها عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده رطبات

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 66.

يأكلها فقال: بخ بخ إنما بيني وبين أن أدخل الجنة أن يقتلني هؤلاء ثم ألقى التمرات من يده وقذف بنفسه في الأعداء حتى استشهد[1].

وفي غير موقف الجهاد والجلاد فقد خطب عليه السلام في مواطن كثيرة كانت تستدعي خطابه، وهكذا فقد خطب ﷺ بمكة خُطبَتَهُ الأولى التي فاجأ بها قريشا لما أنزل الله عليه قوله ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[2]، فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها[3].

---

(1) عيون الأثر لابن سيد الناس 309.

وينظر الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ. محمد إبراهيم محمد إبراهيم ص: 145 المكتب الإسلامي - بيروت 1986.

(2) سورة الشعراء، الآية: 214.

(3) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب قوله: ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ - الحديث 348.

وخطب لما أشاع الناس أن الشمس قد خسفت بموت إبراهيم ولد النبي ﷺ وكانت قضية الخطبة هي تركيز جانب من جوانب الاعتقاد الصحيح لقطع الطريق على الذين يريدون أن يعطوا أنفسهم من القداسة ما يفسدون به العقيدة فقال في هذه الخطبة بعد أن صلى : إن الشمس والقمر من آيات الله وإنهما لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فكبروا وادعوا الله وصلوا وتصدقوا، يأمة محمد إن من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا، ألا هل بلغت [1].

وخطب عليه السلام لما أتاه أسامة بن زيد مستشفعا في المرأة المخزومية الشريفة التي سرقت لئلا يقام عليها الحد، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الشفاعة المؤدية إلى تعطيل الأحكام الشرعية وقام في الناس خطيبا فقال : يا أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف (الحديث) [2].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب الكسوف – باب صلاة الكسوف الحديث 1.

(2) صحيح البخاري – كتاب الحدود – باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع – الحديث 16.

وخطب لما رجع إليه ابن اللتبية وقد استعمله عليه السلام على أموال الزكاة فقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي فغضب عليه السلام وخطب خطبة حسم بها داء الرشوة قبل أن يستشري في كيان الدولة الإسلامية. فقال عليه السلام: فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا [1]؟

وخطب لما وفد عليه رجال حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر، فأمر بلالا فأذن وأقام وصلى وخطب وانتدب الناس إلى التضامن فاستجابوا حتى تهلل وجهه.

وخطب لما دخل نفر من قريش على أسماء بنت عميس فدخل عليها أبو بكر وهي يومئذ زوجته فشكا ذلك لرسول الله ﷺ فقام خطيبا وقال: لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان [2].

وهكذا فقد كانت كثير من خطبه ﷺ تأتي بعد انشغال

---

(1) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب هدايا العمال - الحديث 36.

(2) صحيح مسلم كتاب السلام - باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها - الحديث 22.

وخطب لما رجع إليه ابن اللتبية وقد استعمله عليه السلام على أموال الزكاة فقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي فغضب عليه السلام وخطب خطبة حسم بها داء الرشوة قبل أن يستشري في كيان الدولة الإسلامية. فقال عليه السلام: فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا [1]؟

وخطب لما وفد عليه رجال حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر، فأمر بلالا فأذن وأقام وصلى وخطب وانتدب الناس إلى التضامن فاستجابوا حتى تهلل وجهه.

وخطب لما دخل نفر من قريش على أسماء بنت عميس فدخل عليها أبو بكر وهي يومئذ زوجته فشكا ذلك لرسول الله ﷺ فقام خطيبا وقال: لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان [2].

وهكذا فقد كانت كثير من خطبه ﷺ تأتي بعد انشغال

---

(1) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب هدايا العمال - الحديث 36.

(2) صحيح مسلم كتاب السلام - باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها - الحديث 22.

بقضية تجدّ وبظاهره تنشأ في المجتمع الإسلامي، فتستدعي الفصل الفوري فيها حتى لا تستفحل فيعسر اقتلاعها بعد أن تصير جزءاً من عرف ومن ممارستهم اليومية.

وعلى نحوما ارتبطت كثير من خطب رسول الله ﷺ بقضايا كبرى فقد أخذت الخطبة على الدوام موقعها باعتبارها أسلوب إصلاح وتوجيه وضبط لحركة المجتمع - وهكذا فقد ألقيت خطب عديدة متينة البناء قوية الحجة توجه بها خطباء مفوهون في خضم الحوادث، فكان لها الأثر الفوري، ثم صارت تلك الخطب قطعا من البيان السامي الذي يجمع إلى جمال اللفظ جزالة المعنى، وبالإمكان الوقوف على شيء من ذلك خصوصا من الكتب التي خلدت بعض الخطب كالبيان والتبيين للجاحظ في الفصل الذي أفرده لذكر أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء [1]، وكالتذكرة الحمدونية التي حوت جملة وافرة من الخطب [2]، وكنثر الدرّ للآبي [3].

---

(1) البيان والتبيين - للجاحظ 306/1 و 48/2 - 120.

(2) التذكرة الحمدونية لمحمد بن الحسن بن حمدون 236/6 - تحقيق إحسان عباس وبكر عباش.

(3) نثر الدر للآبي منصور بن الحسن 16/5 وما بعدها.

وهذه الخطب بموضوعاتها المتباينة يصح أن تعتبر وثائق وسجلات لوقائع المجتمع في فترات مختلفة من تاريخ الأمة كما يمكن أن تعتبر وثائق عن انشغالات الخطباء واهتماماتهم.

من الشواهد البلاغية على ضرورة انكباب الخطبة على فكرة معينة تكون موضوعها ومحورها وتكون كل الأساليب التعبيرية وسائل إلى تجليتها ما نجده لدى بعض علماء البلاغة - خصوصا المغاربة، من استحسان واشتراط استهلال الخطبة بالتسهيم أو الإرصاد الذي يتمثل في جعل أول الكلام دالاً على ما بعده معينا على إدراكه ومهيئاً لسماعه ومثاله القريب من النصوص القصيرة قول الشاعر:

ولي فرس بالجهل للجهل ملجم ولي فرس بالحلم للحلم مسرج

فمن رام تقـويـمـي فإني مقوم

وبإمكان المستمع أن يضيف من نفسه فيقول:

(ومن رام تعويجي فإني معوج)

لأن صدر البيت دال على ذلك [1].

---

(1) مواد البيان لعلي بن خلف ص 322 تحقيق د. حسين عبد اللطيف - منشورات جامعة الفاتح 1982. =

ويتأتى التسهيم في الخطبة بأن تكون فاتحتها متضمنة لحمد أو شكر لله على شيء هو نفسه موضوع الخطبة، فإن كان الموضوع يتناول الوحدة بين المسلمين جاز له أن يقول مثلا: الحمد لله القائل في كتابه ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ [1].

وهذا التسهيم وإن لم يكن فريضة من فرائض الخطبة، وإن لم يكن دائما مراعى ومعتبراً فإن الذي يعنينا من أمره أنه التزام من الخطيب بالتفرغ للحديث عن قضية بالذات، وهذا طبعا يباين أسلوب التعميم والخلط والحشر لقضايا عديدة في الخطبة الواحدة.

مما يستدل به على أن الخطبة إنما يمليها إحساس صادق بخطر مادي أو أخلاقي يتهدد الأمة حالة الانفعال والتأثر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي عليها خطبه، فقد وصفه أصحابه بأنّه عليه السلام كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسّاكم، وحالة الانفعال هذه لم تكن إلا مظهراً فسيولوجيا ظاهريا لاعتمال كثير

= الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية – حسين المرصفي 197/2 – تحقيق عبدالعزيز الدسوقي – الهيئة المصرية للكتاب 1991.

(1) سورة آل عمران، الآية: 103.

من الأحاسيس الصادقة داخل قلبه الشريف وقد كانت تلك الأحاسيس تطفو على ظاهر الجسد فيراها الناس احمراراً في العين وغضبا على الوجه وارتفاعا في الصوت - وهذه المظاهر التي فرضها حبه الشديد لأمته وحرصه على مصلحتها تندرج فيما يُسميه المناطقة بالاستدراجات بحسب القائل وهو ركن من الأركان الستة التي تنبني عليها الخطبة. ويدخل في الإبانة عن الجدية والتحمس للقضية أن الخطيب يلقي خطبته قائما وقد قال بإيجاب ذلك عامة الفقهاء واستفادوا من قول الله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما ﴾ وينضاف إلى الوقوف إمساك العصى وهي كلها معينة على الظهور بمظهر الجد والرغبة في الإقناع.

فهذه شواهد على ضرورة عناية الخطيب بقضية معينة يخصص لها خطبته وتكون من الجدوى والأهمية بحيث تستحق أن يجتمع ويصغى لها الناس ويكون كل كلام عداها لغواً ومخاطرة بذهاب أجر الجمعة.

خطيب الجمعة وواقع الأمة المعيش:

إن خطيب الجمعة هو الرائد الذي لا يكذب أهله، وهو الناقد البصير، والملاحظ النزيه، والمتتبع لمسيرة المجتمع بإحساس مرهف ويقظة حاضرة وذكاء وقاد يؤهله لفهم ما يروج في الساحة الفكرية سرا وعلنا من التيارات والأفكار، وما يمارس على المجتمع من مكر بالليل والنهار لإعادة صياغته وتشكيلها تشكيلا آخر تضيع معه جميع جهود الإصلاح وتتلاشى معه جميع المحاولات المبذولة للإبقاء عليه على منهج الإسلام.

وعملية المتابعة والإدراك والتحليل لما يقع في المجتمع تقتضي بداهة حضوراً قويا وتغلغلا واعيا في المجتمع، لأن من العبث انتظار شيء من الخطيب إذا كان الخطيب نفسه منعزلا عن المجتمع، راضيا بالطوق الذي يضرب حوله بما يشاع من أن المجتمع المدني لم يعد فيه متسع ولا فسحة للخطيب ومن على شاكلته ممن ينطلقون منطلقا شرعيا.

كما لا يجوز للخطيب أن يختار هو من نفسه وبمحض

إرادته حياة العزلة والانقباض عن المجتمع متذرعاً بذريعة من الذرائع كالخوف من الارتكاس في دنايا المجتمع وسفاسفه، أو كالرغبة في الاستمتاع برياضة الروح وما إلى ذلك من الذرائع التي ليست وجيهة ولا مرضية، لأن حياة العزلة والانقباض إنما هي حياة الشخص من أجل ذاته، وأما الخطابة فهي تتطلب حياة أخرى من أجل المجتمع ومن أجل الآخرين، وشتان ما بين النمطين والأسلوبين من الحياة.

إن الخطيب يجب أن يكون حيث يكون الناس ليحسن فهمهم وليستوعب مشاكلهم وليعرف أيضا البواعث والأسباب الكامنة وراء انحرافهم وانزلاقهم نحو الشر، وانعزاله الفكري أو الجسدي مناقض لما يراد منه من توجيه وقيادة للمجتمع.

إنه بمقدار ما يستطيع الخطيب أن يلامس قضايا الناس وأن يسبر همومهم فإنه يضمن اهتمامهم وانتباههم، وبقدر ما يوغل في التجريد ويتناول قضايا هامشية فإنه يقابل بالعزوف والإعراض واللامبالاة.

لقد لاحظ بعض الدارسين كيف تلقى خطب ومواعظ رجال الكنيسة في رتابة مملة، فلا تثير فضول الحاضرين ولا تنال اهتمامهم، على حين يلقي خطباء الشوارع غير بعيد من تلك

الكنائس خطبهم في حديقة هايد بارك في لندن أو أمام مركز بومبدو بباريس فيستحوذون بتلك الخطب على النفوس، وتلاقي تجاوبا وإقبالا .

وقد يكون خطيب الكنيسة مجبراً على أن تكون خطبتهُ فاترة رتيبة لأنها تعبر عن دين هو أيضا منسحب عن الحياة لا يتناول من الإنسان إلا جانبه الروحي، أما الخطيب المسلم فإن بإمكانه، بل من الواجب عليه أن تكون خطبته نابضة بالحياة لأنها معبرة عن دين لا يدع منحى من مناحي حياة الإنسان إلا وأرشد فيه إلى خير ونهى فيه عن شر.

وخطيب الجمعة الذي يفترض فيه أن يكون في الصميم من المجتمع وهو يؤدي رسالته النبيلة، يجب أن يتأهل لذلك باكتساب كثير من المواصفات النفسية والخلقية والبيانية، كما أن عليه أن يتزود بحَظ كبير من ثقافة العصر ومعارفه وبكثير من الخبرة بما يعتمل في المجتمع من تيارات وأفكار ومذاهب وما يحكم السلوك الجماعي من المفاهيم والتقاليد والعادات والأعراف وهي شروط كثيرة إن تضافرت فإنها تكسب الخطيب قدرة إقناعية وإصلاحية تجعل مهمته ناجحة. ويمكن إجمال تلك الشروط فيما يلي:

1- العلم بأحكام الشريعة والقدرة على تنزيلها على مستجدات الواقع.

2- العلم الواسع بخصائص الواقع.

3- التتبع الدائم للأفكار الحية التي تكون مرجعية المتلقين.

4- إدراك تأثيرات الفنون والآداب والتقاليد في توجيه المجتمع.

1- العلم بالشرع والقدرة على تنزيل أحكامه على الواقع:

الخطيب مؤد رسالة سامية هي حكم الشرع وتوجيهه للحياة وهذا الأداء لا يقصد إلا إلى ضبط حركة المجتمع بضابط الشرع حتى لا يزيغ المجتمع ولا تطوح به التغييرات التي تطرأ على المجتمع بعيداً عن هدي الله – والخطيب هو الذي يمارس مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مستواها اللساني بكيفية دورية لا تتوقف مهما تكن الأسباب والظروف، وخطبته التي يلقيها تكتسي قيمتها بكونها –ذكراً لله –أخذاً من قوله تعالى ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله**﴾ – وقد صرف بعض العلماء الذكر إلى الخطبة أو الخطبة والصلاة وهذا أحد المعاني العشرين التي تسمى ذكراً كما

نص عليه الفيروزابادي[1] في بصائر ذوي التمييز. واعتباراً لهذا فقد تشدد الفقه الإسلامي في موضوع الخطبة واشترط انحصارها في ما هو من كلام الشرع، وكان بعضهم ربما تحدث والإمام يخطب متى رأى الخطيب انحرف عن الإخبار عن الشرع.

والخطبة الإسلامية منضبطة غير مائعة، وقد قيل إن أقل ما تصح به آية وحديث، لأن الآية إخبار عن الله والحديث إخبار عن رسوله، والقرآن والحديث هما مصدرا التشريع الأصل، وإذا كان هذا هو المجال الذي على الخطيب أن يتحرك فيه ويشرف من خلاله على المستجدات والنوازل فإن هذا يقتضي أولا معرفة من الخطيب بالشرع وبعلومه التي تنبت فيها أحكامه إذ من المستحيل أن يتحدث خطيب عن موقف الشرع من بعض العادات والتقاليد فيصفها بأنها فاسدة إلا إذا كان قد علم ذلك من خلال كتب الفقه والآداب الإسلامية وبقدرما يتسع رصيد الخطيب المعرفي بالشرع وبقدر ما يتحقق من علم الشريعة يكون أقدر على التعبير عن الشرع وأقدر على تجليته في أعين الناس خصوصاً في زمن لم يعد الناس ينقادون لما يُوجهون إليه بيسر وسهولة ما لم يتم إقناعهم وإلزامهم عقليا ومنهجيا بما يُدعون إليه.

---

(1) بصائر ذوي التمييز لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي 9/3.

وحين نطالب الخطيب باستجماع العدة من العلوم الإسلامية فإن هذا المطلب يتسع ويتشعب إذ لا حد لطلب العلم ولا نهاية لامتداد علوم الشرع وقد يكون المخرج من هذا بتقديم ما يجب تقديمه وبالاعتناء بما يتعين أن يعتني به قبل غيره، فإذا عذر الخطيب في ألا يُعلم الجوانب التخصصية في المعرفة الإسلامية فإنه لا يعذر بحال ألا يكون عليما بأداء الآيات القرآنية على الوجه الصحيح لأن من وظائف المنبر أن يعرف بالقرآن وبالقراءة السليمة لآياته مراعاة لأحكام الأداء، ولأجله كان رسول الله ﷺ يتلو القرآن على المنبر حتى حفظ كثير من الصحابة عنه سورة "ق" لكثرة ما كان يتلوها في الخطبة، ويلحق بالعلم بالقرآن الكريم العلم بالسنة حتى لا يكون المنبر وسيلة لنشر الموضوعات والأحاديث الضعيفة الشديدة الضعف، وقد لا يجهل أحد مسؤولية بعض الخطباء في إشاعة الموضوعات إذا رأوا أنها تصلح للاستشهاد على ما يدعون إليه غير عابئين بحظ الحديث من الصحة، وقد ألفينا كثيرا من الخطباء يعدي بعضهم بعضا بمرض الحديث الضعيف والموضوع لأن بعضهم يغتر بما يسمع في بعض الأشرطة ويعتبره صحيحاً ما دام قد استشهد به في خطبة.

ويلحق بالمعرفة الشرعية القدرة على تنزيل الأحكام الشرعية

تنزيلا سليما على المستجدات والوقائع وهذه مهمة ليست بالهينة لأن ذلك يتوقف على فهم النصوص من جهة وعلى إدراك مقاصد الشرع من جهة وعلى الحكم بتماثل الحالة المتحدث عنها مع ما ورد فيه النص أو الحكم الشرعي المعروف.

وفي هذا المجال فإنه لابد من الإشارة إلى وجود أخطاء جسيمة وتجاوزات عديدة ارتكبها بعض الخطباء حينما دخلوا في عملية التنزيل هذه فأسقطوا الأحكام على حالات ليست موضوعا لها، وهكذا وجدنا من جرّأ الناس خصوصا المقيمين بديار الغرب على الاحتيال وعلى ترك العمل بتقديم الشهادات الطبية المزورة وعلى سرقة المال وعلى التلاعب في الحساب اعتقاداً منهم أن الأجنبي كافر محارب يحل ماله. وجرّأ بعضَهم الشباب على الزواج الصوري الذي يدعى في الشرق المسيار، وعلى الزواج العرفي الذي لا يحضره عدلان رسميان وعلى التزوج بالكتابيات بلا قيد ولا شرط مع أن الآية صريحة في حلية جواز المحصنات من الذين أوتوا الكتاب.

وهكذا يفاجأ مجتمعنا الإسلامي بتوجيهات غريبة وبفتاوى تنتهي إلى تدمير الأسرة وإلى تفكيك المجتمع وإلى أنواع أخرى من التفلت والإهدار لمقاصد الشرع وغاياته.

2- المعرفة بالواقع:

إن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يعطيان المثل في مواكبة الواقع علما به ومتابعة لمستجداته ونوازله، وكتاب الله وإن كان كتاب البشرية جمعاء على امتدادها في الزمان والمكان فإنه لم يغفل الواقع الذي عاشه الناس زمن التنزيل وإنما توقف عند كثير من وقائعه فكشف عن سلبياتها ووظف ذلك في عرض النموذج الصالح، فكتاب الله عرّف بطبائع الناس الموجودين يومذاك في الساحة بل سجل أقوالهم فقدم لها غالبا بقوله (وقالوا... وقال الذين لا يومنون.. وسيقول...) وهكذا شخص كتاب الله نفسية الإنسان المنافق والكافر والوثني والدهري والصابئ – وعرف الناس بأثار شاخصة من مواقع الأقوام وقال عن ديار لوط ﴿ **وأنها لبسبيل مقيم** ﴾ [1]. فنبه إلى أنها كانت باقية إلى وقت نزول الآيات.

وتحدث كتاب الله عن أحداث معاصرة للنزول جرت خارج بلاد العرب فسجل هزيمة الروم أمام الفرس وأنبأ أن الدائرة ستكون

---

(1) سورة الحجر، الآية: 76.

على الفرس بعد بضع سنين، إلى غير ذلك من الوقائع التي تتبعها كتاب الله ولم يضرب عنها صفحاً وإن كان هو في حد ذاته رسالة الله إلى الإنسانية إلى قيام الساعة.

أما عن صلة السنة بمحيطها فذلك ما لا يمكن تقصيه، فقد كان رسول الله ﷺ عليما بأحداث عصره متابعاً لها، ويكفي أن نقف من كل ذلك على موقف واحد هو تصرفاته قبل غزوة بدر وما كان منه من إجراءات لتعرف أحوال الخصوم فقد هداه فهمه وتجربته إلى أن القوم بين التسعمائة والألف لما عرف أنهم يذبحون تسعة أو عشرة من الجمال لسابق علمه بأن الجمل يطعم مائة من الناس [1].

وقد كان عليه السلام المرجع في كثير مما يحدث للناس مما ليس من أمور التعبد، وهكذا أشار على عرفجة بن أسعد لما اتخذ أنفا من حديد أن يزيله ويتخذه من ذهب[2]، وهي إشارة إلى وجوب التصون والحذر من التيتانوس وعلم أصحابه شيئا من حكم الأرصاد الجوية المناسب لبلاد العرب فقال لهم إذا نشأت

---

(1) سيرة ابن هشام 189/2.

(2) التراتيب الإدارية ـ عبد الحي الكتاني 65/2.

بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة [1].

ومن دقة علمه ﷺ بالمحيط أنه كان يعرف أصحابه بل ومناوئيه معرفة دقيقة وكان يدرك استعداداتهم ومواهبهم وأخلاقهم، فيضع كل شخص في مكانه المناسب، فقد علم أن بلالا وابن أم مكتوم يتمتعان بصوت جميل وقوي لكنه كان يحب سماع القرآن من ابن مسعود لأن جماله أوفق بالأداء الخافت، وكان يعلم من حسان بن ثابت شاعريته فنصبه للدفاع عن العقيدة من موقع الشعر لكنه لم يتخذه خطيبا وإنما اتخذ ثابت بن قيس خطيبه الرسمي، لأن فصاحة الخطيب غير فصاحة الشاعر، وعلم من أحوال المخالفين من الكفار والمنافقين ما لم يكن يعلمه عنهم أقرباؤهم وملازموهم، وقد أوصى سعد بن أبي وقاص لما مرض أن يعرض نفسه على الحارث بن كلدة لعلمه بمهارته في الطب [2].

وبالإضافة إلى علم ومتابعة الرسول ﷺ للواقع المعيش، فقد كان يتعرف على ما حوله، فاتخذ من قبيلة خزاعة مرجعا لإطلاعه على ما يجد من الحوادث وقد امتد علمه بما هو أبعد عن جزيرة العرب فكان على علم بالنظام السائد في الحبشة فمن ثم نصح

(1) موطأ الإمام مالك - الاستمطار بالنجوم.

(2) التراتيب الإدارية 456/1.

لأصحابه لما أرادوا الهجرة أن يتوجهوا إلى الحبشة لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد[1].

وجميع ما أوردت يؤكد أن الرسول ﷺ كان متابعا لما يحصل في المجتمع وما يطرأ من قضايا ونوازل.

وما أوردت لا يعدو أن يكون شواهد قليلة على ضرورة اتصال الداعي إلى الخير بالمحيط الذي يعيش فيه.

والمحيط الذي يجب أن يكون الخطيب عالما به لا يقتصر دائما على دائرة ضيقة هي القرية أو المدينة أو القطر وإن كانت مراعاة الأوليات مطلوبة وإنما يمتد هذا المحيط ليشمل جميع مناطق وجود الإنسان المسلم، لأن المسلمين وإن تناءت ديارهم فإنهم يشكلون مجتمعا واحداً وقضية أي جهة منهم هي قضية جميعهم بحكم الأخوة ووجوب موالاة بعضهم للبعض، وقد يندرج في محيط الخطيب أي نقطة من الأرض وإن لم يوجد فيها مسلمون إن صح أن يكون الحديث عنها موضع عبرة تستلهم أو عظة تستنبط.

وهكذا يكون المحيط الذي تمتح منه الخطبة محيطا مطاطا

---

(1) سيرة ابن هشام 280/2.

يتسع حتى يستغرق العالم ويضيق حتى يقتصر على المدينة أو القرية وهذا الضيق أو الاتساع تحكمه مستجدات وملمات تجعل الحديث عن هذه الجهة أولى من الحديث عن غيرها.

وإذا كان مطلوبا من الخطيب أن يرتبط بمحيطه وبيئته فإن هذا يوجب عليه دون شك التزود بمعارف العصر والملاحقة اليومية لما يجد في بيئته من الأفكار.

وهذه المتابعة والملاحقة تلزم الخطيب بالاتصال بوسائل الإعلام التي تنقل الخبر، وقد تعلق عليه من منظورها الغربي الذي لاشك أنه يختلف اختلافاً جذريا عن المنظور الإسلامي فإذا وجدت وسائل الإعلام بمضمونها الإسلامي فإن ذلك يخفف المؤنة على الخطيب بل ويساعده كثيراً على بلورة تصور وتحليل إسلاميين لكثير من القضايا، فإن لم توجد فإن على الخطيب أن يجتهد في تكوين صورة إسلامية للمستجدات والوقائع، وعليه أن يحذر من الوقوع في الأحكام الجاهزة والقيم الخاطئة التي يروجها الغرب انطلاقا من مدنيته المنكرة للدين، فيجب أن يكون للخطيب فهم إسلامي لكلمات كثيرة متداولة كالحرية والتسامح والإرهاب والعنف والأصولية والتطرف والمجتمع المدني وحوار الحضارات ولقاء الأديان، وهذه الألفاظ ليست مجرد كلمات

وإنما هي قوالب لقيم المجتمع الجديد الذي يراد له أن يسعى إلى تغييب الدين من الحياة.

إن المطلوب من الخطيب بعد أن يعي مجتمعه ويتمثل قضاياه أن يسعى إلى تقريب الإسلام وتقديمه للناس على أنه العامل الحاسم في حل أزمات المجتمع ومشاكله. وذلك بالكشف عن جميع الجوانب الفاعلة في ذلك، فحينما يتحدث الخطيب عن الأحكام التي حافظ بها الإسلام على البيئة ودافع بها عن حقوق الإنسان أو حدد بها حقوق المرأة أو أقرّ بها العلم أو حارب بها الجهل والأمية أو كافح بها البطالة أو حقق بها التنمية، فإن الخطيب يكون قد أدى رسالة الخطبة وكشف عن وجوه مشرقة جذابة من الإسلام.

إن بالإمكان بل من الواجب أن يقدم الخطيب الإسلام للناس على أنه شرط ضروري في التنمية حتى لا تظل الأنظار دائما مربوطة إلى البرامج الاقتصادية التي مهما تكن جيدة فإنها لا تؤدي غايتها إلا بصلاح الإنسان لأن عودة الصدق إلى المجتمع يؤدي إلى عودة الثقة وهو ما يطمئن الناس على أن بإمكانهم أن يدخلوا في شركات تعاونية. ويقرضوا أو يضاربوا الشباب ليحققوا آمالهم الاقتصادية وبهذا تتحرك عجلة الاقتصاد وتحارب

البطالة وتقل الجريمة ويرتفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للناس.

3- التتبع الدائم للأفكار الحية التي تكون مرجعية للمجتمع:

إن مما يتميز به عصرنا الذي هو عصر الوضعية في غير العالم الإسلامي طبعا هو هذا التسارع إلى إنتاج الأفكار والآراء التي سرعان ما تتحول إلى مذاهب لها أتباع ودعاة ينادون بها. وقد يكون هذا الإنتاج محاولة لتعويض ما خلّفه إقصاء الدين من فراغ روحي، وقد يكون بعض تلك الأفكار خصوصا منها تلك التي نشأت تحت مظلة الاستعمار إنما يراد بها إحداث خلخلة في البناء العقدي الإسلامي وصولا بعد ذلك إلى تفتيت كيان الأمة – وقد شاء الغرب أن يراهن على تصدير هذه الأفكار فأولاها من فرص الظهور الشيء الكثير–.

وقد منح التفوق التكنولوجي الدول المتقدمة حظوظا كبيرة لعرض فكرها وتقديمه إلى الشعوب على أنه الفكر الجديد الجدير بالاعتناق بينما أصبحت الدول النامية ومنها الدول الإسلامية ساحة لترويج ذلك الفكر وميدانا لتحركه ونشاطه الاستقطابي بسبب من انشغال تلك الدول بمشاكلها اليومية وبسبب من

تخلف خبرتها الإعلامية ومن عدم تقديرها لدور الإعلام وأثره في التمكين للحق أو للباطل.

وفي وضع هذا شأنه فإن البلاد الإسلامية تظل مستهدفة أكثر من غيرها لهذا الفكر الغريب الوافد ويظل التخوف قائما من أن يجد ذلك الفكر امتداده في نفوس الأجيال الجديدة التي قد تحسن الظن به وتستسلم له حينما لا تقوم الأجهزة العلمية المتخصصة بواجبها في فضحه والتحذير منه، ويظل الخطيب بحكم كونه الأكثر حظا من مخاطبة الناس مناط الأمل وقطب الرحى في هذا العمل الإشعاعي الضروري.

إن مشكلة الأمة تكمن في هذا الاسترخاء المستديم وفي هذه السذاجة التي تنظر بها إلى الأفكار والمذاهب من حولها اعتداداً بالذات واستصغاراً للخصم أو جهلا كليا بما يحاك ضدها من كيد بالليل والنهار وهو جهل ضار لأن من أخطر آثاره الإحساس بالأمن والركون إلى الدعة وترك السلبيات النابتة تتضخم وتتفاقم حتى تصبح ظواهر لا قبل للدعاة بمقاومتها والمطلوب من الخطيب حينما يختار الإيجابية على الإشراف من بعيد على معضلات المجتمع أن يأخذ للأمر عدته فيتزود من ثقافة العصر ليتمكن من رصد تموجات الأفكار ومن فهمها وقراءة

منحنياتها صعوداً وهبوطا ليكون رد الفعل منه على مقدار أهميتها وقدرتها على التغلغل في كيان المجتمع.

إن الخطيب يجب أن يؤمن أولا أن عصرنا الذي تزاحمت فيه الآراء والمذاهب والمعتقدات ليس عصر البراءة والاحترام للغير وإنما هو عصر صراع الحضارات كما أعلنه هنتكتون من منظريهم المعاصرين وهو عصر الطموح إلى سيادة الفكر الوحيد الذي جاءت فلسفة نهاية التاريخ التي قال بها فوكوياما لتعلن عنه وتبشر به.

إن المتأمل المتابع لما يعرض يوميا في الساحة الفكرية من المصطلحات والتعابير وأساليب الأداء لا يعسر عليه -إن أعمل فكره - أن يلحظ النيات السيئة الهادفة إلى تغييب ما هو إسلامي عن الوجود في يسر وسهولة وفي شيء يشُبه العقوق، فالمناداة بوحدة الأديان ربما خدعت بعض الأغرار خصوصا في أجواء الدعوة إلى العولمة وإلى التسامح، وهي فكرة ذهبت بعيداً إلى حد المطالبة ببناء المعبد الثلاثي الذي يؤمه اليهودي والمسيحي والمسلم وإلى حد المناداة بطبع الكتاب الذي يضم بين دفتيه العهد القديم والجديد والقرآن، وهذه دعوة خبيثة لا يخسر فيها إلا الإسلام الذي شاء الله ألا يقبل من الناس دينا غيره، ﴿ **ومن يبتغ غير**

الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾[1]، وهي أيضا دعوة تلغي نسخ الإسلام لما سواه.

وقد يتداول الناس ألفاظا لا يلقون بالاً لشحنتها الدلالية المناقضة للإسلام فيعمقون الهوة بينهم وبينه، فحينما يقولون عن إنسان بأنه مات ثم شيّع إلى مثواه الأخير فإن اللفظ ربما انطلى خبثه على السذج لكن المتدبر له يعلم أنه يراد به إنكار البعث والحشر لأن القبر ليس مثوى أخيراً وإنما هو مرحلة لها ما بعدها.

وحين يسمي الناس الربا فائدة فإن هذا ادعاء لمساواة الربا للبيع وأنه معاملة مشروعة ذات فائدة، وحينما يعبر أحدهم عن إعجاب بآخر فيقول إنه مثله الأعلى في الحياة يكون قد تجاهل أو أنكر أن الله هو الذي له المثل الأعلى بناء على قوله ﴿ **ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾[2] إلى غير ذلك من التعابير والأساليب غير البريئة.

إن المذاهب والتيارات التي أصبحت تتزاحم وتعكر صفو الجو الفكري الإسلامي كثيرة جداً تكاد تند عن الحصر، ولكن الإلمام بأبرزها وأقواها حضوراً في الساحة الفكرية أمر تفرضه

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 84.

(2) سورة النمل، الآية: 60.

ضرورة الاطلاع على الأفكار التي تشكل مرجعية للإنسان المعاصر من أجل إصلاحه وتوجيهه إلى الخير لأن السلوك تمليه دائما فكرة وموقف فكري سابق، وما لم يعرف الخطيب مرجعيات الناس فإنه يعسر عليه أن يقدم لهم العلاج لأدوائهم وعللهم.

وقد استبان لي من خلال ملاحظتي لما يشكل مزاحمة راهنة وخطراً ماثلا من الأفكار حاليا أنه أفكار عديدة يمكن تصنيفها على النحو التالي:

1- توجهات وضعية لا صلة لها بالدين

2- توجهات هي صيغة لتحريف الإسلام.

3- توجهات دينية أجنبية قديمة.

1- التوجهات الوضعية:

ليست فترتنا هذه أول مرحلة واجه فيها الإسلام تحديات المذاهب الوضعية القائمة على تفكير الإنسان منعزلاً عن الدين، فمنذ أن خرج الإسلام عن بلاد العرب واتصل بشعوب أخرى ظهرت أمامه مذاهب طبعية ومادية وغنوصية وغيرها وإن كان أكثرها قد اختار التستر ولجأ إلى المناورة والمداهنة فكانت حركة

الزندقة والباطنية تغييراً يتظاهر بالدين وإن كانت في عمقها تهدف إلى تقويض عرى الدين.

وفي الأعصر الحديثة كانت العلمانية Secularisme هي الصيغة النهائية التي أفضى إليها الصراع الطويل بين الكنيسة والدين في العالم المسيحي وأسفرت المواجهة عن تشطير الحياة بين العلمانية والدين على أن تقود هي الحياة بكل مرافقها وبجميع أقطارها ويسوس الدين مجال الحياة الروحية وهي قسمة إن سلبت الكنيسة كثيرا من امتيازاتها المادية فإنها قد كانت في الحقيقة غير ظالمة مادامت المسيحية بخلوها من التشريعات المنظمة للمجتمع هي في نفسها ديانة علمانية قائمة على ذلك التشطير النكد.

وقد كان من أثر التبعية ومن آثار الإحساس بالانبهار بالغرب ومن آثار الفهم القاصر للدين الإسلامي الذي هو صيغة مخالفة للمسيحية أن بعض مثقفينا نقلوا الصراع بين الدين والحياة إلى البيئة الإسلامية وأصبحوا يبذلون في إقصاء الدين عن الحياة من الجهد ما لو بذلوا معشاره في ترقية المجتمع وفي محو الأمية وفي نشر العلم لكان كافيا لانتشال المجتمع الإسلامي من الوهدة التي يتردى فيها.

وقد قدمت العلمانية للناس على أنها تقنع بفصل الدين عن الدولة وبتنظيم الدولة على أساس من توظيف العلم لصالح ذلك.

لكن هذا على سوئه لم يراع وإنما تكشفت العلمانية في أثواب خصم لدود لا يرضى بأقل من محو الدين من حياة الناس نهائيا، وهكذا فقد تدخلت العلمانية في حرية الشخص في ممارسة شعائره وطاردت الحجاب وعوقت بناء المساجد وأغلقت أو همشت مدارس التعليم الشرعي وحاصرت المشتغلين في القطاع الديني بمشاكل البحث عن ضرورات العيش وضايقت أوقات العبادة كالصلاة والصيام بشغلها بأعمال إدارية وغير إدارية، وفي مقابل ذلك حرصت العلمانية على صياغة مقولات ومفاهيم تبرر سحب الدين عن الحياة، فأصبح الاعتزاز بالتراث الشعبي يعني الرجوع إلى كل شيء مما أنتجته الشعوب الإسلامية باستثناء ذلك الرصيد الهائل المشرق من الأعمال والإنجازات العلمية التي أنتجها الإنسان المسلم عبر تاريخه، وأصبح شعار الفن للفن ذريعة لإبراز كل لون ساقط من ألوان التعبير الفني لأن الفن لا دين له، ولا يطلب فيه أكثر من القدرة على التعبير عن الذات.

ولعل تيار الحداثة في الأدب أن يكون أكثر إفصاحاً عن امتدادات العلمانية في الثقافة والفكر والفن والأدب حينما نتابع

ذيول الأفكار. ويلحق بالعلمانية في خطورتها تأثيرها على الحياة الفكرية للمجتمع المسلم مذاهب لا تبلغ مبلغها في الحضور في ذلك كالحركات الماسونية والوجودية والحونية ومذاهب أخرى أقل تأثيراً لكونها أقل حضوراً.

2. توجيهات محرفة عن الإسلام.

وهذه التوجهات مذاهب كثيرة أدت إليها روح الابتداع والتأويل الفاسد ودعمها أعداء الإسلام ومنها:

أ. البابية والبهائية:

هما مرحلتان لمذهب واحد بدأ بابية وانتهى بهائية والبابية مذهب منسوب إلى علي بن محمد الشيرازي (1819-1849) الذي ادعى أنه الباب ويقصد به باب الوصول إلى قائم آل محمد الذي هو المهدي وذلك في سنة 1260هـ. وقد زعم بعد ذلك أن الله نزل عليه كتابا هو كتاب البيان ﴿خلق الانسان علمه البيان﴾، وقد قتل الباب رميا بالرصاص في فبراير عام 1266، وبعد مقتله اختصم خليفته الملقب بصبح الأزل مع أخيه ميرزا حسين الذي

يلقب ببهاء اللله وفرقت بينهما الحكومة العثمانية وأبعد البهاء إلى عكا فبدأ بذلك مرحلة البهائية [1].

وقد كان البهاء تأثر بفرقة الشيخية من غلاة الشيعة، وكانت هي تنتظر ظهور المهدي حتى قيل إنه لم يكن أحد يقوم من نومه إلا ويقول إنه رأى الإمام في المنام، فيقولون له إنهم رأوه يقظة وقد دعا البهاء الشيرازي إلى شريعة جديدة فكانت داعيته المعروفة بقرة العين تقول لمن تدعوهم لقد نسخت الشريعة المحمدية بظهور الباب [2]. وقد وضع البهاء كتاب أهمها كتاب الأقدس وله كتب أخرى[3].

ويمكن إجمال الآراء التي دعت إليها البابية والبهائية في الاعتماد الكبير على العدد فهم يقدسون العدد 19 والسنة عندهم 361 يوما وهي 19 شهرا وكل شهر 19 يوما يجب أن يسوس

---

(1) موسوعة الفرق الإسلامية د. محمد جواد مشكور، ص: 141 تعريب علي هاشم – ط جمع البحوث الإسلامية لبنان 1995. ودائرة المعارف الإسلامية 228/3.

(2) قراءة في وثائق البهائية د. عائشة عبد الرحمن 43.

(3) دائرة المعارف الإسلامية 241/4.

أحدهم جماعة تتكون من 19 عضوا ومن عقيدتهم أن الباب هو الذي خلق كل شيء بعلمه، وهم يقولون بقول النصارى في الصلب، ويقولون بقول المجوس في التناسخ، ويقولون بنسخ شريعة الإسلام ويرون[1]، بأن مقدار الزكاة الخمس، ويقولون بإباحة الربا وبحرية التجارة بلا قيد ولا شرط وبإباحية الزواج بعد سن الحادية عشر وأن عدة الرجعة 19 يوما بعد الطلاق وأن الصلاة تجب تسع عشرة مرة وزواج الأرملة جائز بعد دفع الدية وأن من ماتت عنه زوجته يجوز له أن يتزوج بعد 90 يوما من وفاتها وأن الصيام شهر بهائي وهو 19 يوما من شروق الشمس إلى غروبها وهو واجب على من يبلغ إحدى عشرة سنة ولم يتجاوز الثانية والأربعين، والغسل غير واجب وإنما هو مستحب وتجوز رؤية النساء سافرات ويجوز التحدث إليهن على ألا يتجاوز الحديث 28 كلمة والحج هو زيارة البيت الذي ولد فيه الباب ولا تصلى عندهم صلاة جماعة إلا صلاة جنازة وليس عندهم شيء نجس، ويجب قراءة 19 فقرة من كتاب البيان يوميا ويجب أن يذكر الله 261 مرة يوميا ويحرم شرب الخمر وأكل المعاجين ويجب أن يدعو

---

(1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة 61.

كل بهائي 19 شخصا مرة في كل 19 يوما ولو لشرب الماء [1].

وبعد، فهذه بعض تعاليم البابية والبهائية وهي تكشف أنها لا صلة لها بالإسلام لأنها تخالف معتقداته جملة وتفصيلا وقد وددت الوقوف عند هذه التعاليم إيضاحا لها وتحذيرا منها واستحثاثا على كشف حقيقتها لجمهور المسلمين الذين أصبح كثير منهم لا يفرق بين حق وباطل وهو ما أصبح يمنح هذا المذهب فرصة الانتشار والظهور في الأمة الإسلامية وقد وجدنا أن للبهائية اهتماما وتطلعا إلى إفريقيا لأن هذا يخدم أغراض الصليبية واليهودية الحالمة بتقلص الوجود الإسلامي في القارة الإفريقية.

ب. القاديانية:

لقد تعمدت الحديث عن القاديانية في هذا المبحث بعد ما لمست عن كتب مقدار الجهد الذي أصبحت هذه الفرقة تبذله مركزة على إفريقيا، فقد كانت أبرز فرقة توصلت بمساعدة ممن يدعمونها إلى إحداث قناة تلفزية تبث أفكارها عبر الأقمار الصناعية فالتبس الأمر على الكثير من الناس وظنوا القاديانية دعوة إسلامية.

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية – مادة باب. 229/3.

كما أن الساحة الإفريقية شهدت انتشار عدد ضخم من مطبوعاتها بأسماء مختلفة وقد وقع بيدي من كتبها ومنشوراتها كتاب: «فلسفة تعاليم الإسلام للميرزا غلام أحمد القدياني» وكتاب «القول الصريح في ظهور المهدي والمسيح» للمبشر الأحمدي راعي الجماعة في غانا وكتاب «إحياء الإسلام للميرزاغلام أحمد وكتاب معجزة فلكية لمصطفى ثابت من كندا والتحصيل والتفنيد لعطاء الله كهيم من فرانكفورت، وأعداد من مجلة التقوى، وقد يسّر هذا إلى جانب البحوث التي رجعت إليها أمر الاطلاع على حقيقة القاديانية.

وما هي عليه من انحراف.

تدين القاديانية بنشوئها إلى غلام أحمد المغولي الأصل الهندي المنشأ (ت1907) في القرن 19 الذي ظهرت فيه تنبؤات كثيرة بتزكية ومباركة من الاستعمار الإنجليزي للهند خصوصاً بعد إخفاق ثورة عام 1857م، ونشأ الميرزا غلام أحمد في أسرة يقول عنها هو نفسه: لقد أقرت الحكومة بأن أسرتي في مقدمة الأسر التي عرفت في الهند بالنصح والإخلاص للحكومة الإنجليزية ولقد دلت الوثائق التاريخية على أن والدي وأسرتي كانوا من كبار المخلصين لهذه الحكومة من أول عهدها ولقد قدم والدي فرقة

مؤلفة من خمسين فارساً لمساعدة الإنجليز في ثورة 1857 [1].

ولاشك أن الإنجليز كانوا على ثقة كبيرة في هذه الأسرة الضالعة في العمالة والولاء لهم فلذلك أعدوا غلام أحمد على أعينهم ودعموه وعززوا جهوده.

لقد بدأ غلام أحمد أعماله العلمية الأولى بمحاولة اكتساب لقب ومركز بين العلماء المسلمين فألف سنة 1873 كتاب براهين أحمدية الذي وعد أن يخرجه في أجزاء كثيرة ثم أخلف وعده ثم بدأ زيغه وضلاله باعتماده الكبير على الرؤى والمنامات والإلهامات ثم ادعى أن الله أمره بإصلاح العالم وفي سنة 1891 ادعى أنه مثيل المسيح بعدها أعلن أن عيسى لم يُرفع وإنما مات وزعم أن التوفي في القرآن لا يرد إلا لمعنى الموت، وقد تأول أحاديث نزول المسيح بأنها مرشدة إلى ظهوره هو، وأن دمشق التي سينزل بها المسيح هي كشمير التي تشبه دمشق في مائها وهوائها، إلى غير ذلك من ضلالات تدور على المهدية وعلى نزول المسيح.

وفي سنة 1900 ألقى تابع غلام أحمد خطبة جمعة جهر فيها

---

(1) كتاب البرية – الإعلان المؤرخ بـ 20 شتنبر 1897 عن القادياني والقاديانية. لأبي الحسن الندوي ص: 23 دار المعروبة للنشر ط1967/3.

برسالة غلام أحمد وأن الله بعثه كما بعث كل المرسلين وصرح بأن الإيمان به واجب وأن من لم يؤمن به فسيكون مفرقا بين الأنبياء والرسل[1].

وقد أكد غلام أحمد هذا مراراً كما في قوله: « لقد أكد لي الله تعالى أن كل ما أقوله هو الحق والصدق » وقد صرح غلام أحمد بحقيقة دعوته في رسالة وجهها إلى ندوة العلماء بالهند، فقال: ذكرت مراراً أن هذا الكلام الذي أتلوه هو كلام الله بطريق القطع واليقين كالقرآن والتوراة وأنا في ظلي وبروزي من أبناء الله[2].

وقد نجد شاهداً قويا على هذا في كتاب فلسفة تعاليم الإسلام للميرزا غلام أحمد خصوصا في الفصل المعنون بـ: تشرف صاحب المقال بمكالمة الله وخطابه، وفيه يقول: إن مرتبة الشرف بمخاطبة الله ومكالمته إني فصلتها الآن ميسرة لي بفضل الله وعنايته ذلك لكي أمنح العميان البصيرة[3].

---

(1) القاديانى والقاديانية – للندوي ص: 69.

(2) القادياني والقاديانية – للندوي ص: 72.

(3) فلسفة تعاليم الإسلام لغلام احمد القادياني ص: 138.

وبعد وفاة الميرزا غلام أحمد خلفه تابعه وشريكه في كثير من عناصر دعوته نور الدين البيهردي الذي يقال عنه أنه هو صاحب فكرة الأحمدية من أساسها وبجهود هذا تكاملت الأحمدية نحلة جديدة وإن كان دعاتها لا يكفون عن الإعلان بأنهم مسلمون ومن تسمية شركاتهم للنشر بالشركات الإسلامية وهي خطوة لابد منها لتسكين المسلمين ولضمان تقبلهم لأفكار القاديانية وقد تبين من خلال قراءة كتابات القاديانية أنها تقوم على أفكار منها :

- القول بالطبيعة المسيحية للميرزا غلام أحمد .
- ادعاء المهدية [1] .
- ادعاء الرسالة والتشرف بمكالمة الله[2] .
- انتقادهم بأن الله يصوم ويصلي وينام ويصحو ويكتب ويوقع ويخطئ.
- قولهم بأن النبوة لم تختم بمحمد .
- انتقادهم بأن القادياني أوتي كتابا اسمه الكتاب المبين .

---

(1) موسوعة الفرق الإسلامية، د. محمد جواد عبد الشكور 94.

(2) كتاب فلسفة تعاليم الإسلام لغلام أحمد ص : 138 .

• يعتقدون أن أصحاب غلام أحمد مثل الصحابة.

• يعتقدون بأن قاديان كالمدينة المنورة ومكة بل هي أفضل منهما وأن أرضها حرم.

• قولهم بإلغاء الجهاد وضرورة الخضوع للانجليز لأنها ولي الأمر الذي يجب أن يطاع.

• يقولون بإباحة الخمر والأفيون والمخدرات.

وبعد، فهذه بعض تعاليم القاديانية التي تبين منها أنها اتجاه مناقض للإسلام وأن اعتناقها والأخذ بها إنما هو ردة وكفر بواح كما تبين أيضا أن هذا الاتجاه يجد لدى الغرب الذي يمنحونه من وسائل الظهور والتغلغل في البلاد الإسلامية ما رجوا به أن يخدم مطامعهم وأحلامهم في السيطرة على العالم الإسلامي، وفي إخماد جذوة الإسلام المتوقدة، فلذلك فإن نشاط هذه المذاهب الضالة أصبحت تتضاعف بقدر ما يؤوب هذا المجتمع الإسلامي إلى الله ويمتن علاقته بينه لذا فإن الخطيب مدعو إلى أن يلم بهذه المذاهب المنحرفة ويوليها اهتمامه ويرصد حركتها ونشاطها في الساحة التي يمارس فيها إرشاده وتوجيهه لأنها تشكل تعريفا حقيقيا لما يدعو إليه من حق وهدى.

3. توجهات دينية أجنبية عن الإسلام.

وتمثلها أديان شرقية قديمة كالبوذية.

الخطيب ومتابعة الفنون والآداب

مما يؤخذ على بعض المشتغلين بالدراسات الشرعية قلة اكتراثهم بالآداب والفنون وإهمالهم لها وتركها مجالا ينفرد به العلمانيون ومن لا ينطلق منطلقا إسلاميا. وليس ذلك إلا لسوء تقدير ما للفنون والآداب من تأثير ودور في تشكيل عقليات المجتمع وتوجيهها وجهة خاصة.

والواقع أن الإنسان الذي يستهلك أدبا منحطا أو يتجاوب مع مسرحية هابطة أو يتعاطف وجدانيا مع أحداث شخوص قصة متمردة على الدين وعلى قيم الخير لابد أن يتأثر بما يقرأ أو يشاهد بدرجة من درجات التأثر، لأن الفنون والآداب لا تمنع الناس أو تهذب أذواقهم أو ترهف أحاسيسهم كما هو المفروض فيها، وإنما توحي بأفكار وتشهر خطابا غير معلن يستقر في وعي المتلقي ويشكل ذهنيته.

فالمسرحية التي موضوعها انتقاد الزواج بأكثر من واحدة، وتعلن عن نفسها بعنوان "الشرع أعطانا أربعة" لا تقف عند حد انتقاد تعديد الزوجات وإنما تريد التهكم بالشرع وإظهار تخلفه وعدم صلاحيته للواقع المعيش، لأن التعديد يقع فعلا خارج العقد الشرعي عن طريق السفاح وهو مع ذلك لا يهاجم ولا ينتقد وإنما يقبل على أنه من الإفرازات الضرورية للحياة المعاصرة .

وأعتقد أن كثيرا مما كان أصحابه يريدون إعلانه من أفكار مناوئة للإسلام قد وجد سبيله إلى الناس عن طريق ركوب القصة والأقصوصة والمسرحية والقصيدة وما إليها من الأجناس الأدبية.

إن الأدب الحديث قد استطاع أن يؤسس لنفسه مذاهب تعبيرية ألغت من حسابها قضية القيم وركزت على وسائل التعبير فجعلت توافر الأخيلة ووضوح الصورة الشعرية في القصيدة وتكامل عناصر السرد في الرواية ووضوح الحوار في المسرحية فصارت هذه هي كل ما يطلب من الأديب مراعاته وعليه ينصب النقد أيضا فصارت موجة الحداثة الكاسحة اتجاها يتنكر لجميع القيم الجمالية والفنية والأخلاقية في الأدب القديم لينبني على أنقاض ذلك – نظرة استغرابية – وقد أصبحت الرغبة في الظهور بمظهر الحداثة هي التي تملي على كثير من الأدباء اعتماد لغة خاصة

وإنتاج أدب منحرف يمتهن كل الرموز المنيرة في ثقافتنا الإسلامية، وهذه حملة قد أعدّ لها منظروها بإحكام منذ أمد ليس بالقصير، فمنذ زمن غير قصير كان العلامة محمود محمد شاكي يكتب عن هجمة دعاة الشر على الأدب العربي بكل قيمه وردّ بقوة على لويس عوض وأضرابه[1]، ونبّه يومئذ على خطورة الحملة على الأدب العربي. ولم يزل هذا المد يتنامى حتى استوى أخيراً دعوة إلى اعتماد العامية واللهجات وإلى إطراح العربية وإلى إشاعة الأدب المنحل وإلى تركيز معايير نقدية ومناهج في الدراسة تعلي من شأن الأدب الذي يوظف الأسطورة اليونانية الوثنية ويزكي الفجور ويسميه تعبيراً عن الذات ويمجد الإلحاد ويسميه فكراً حُرّاً إلى غير ذلك من صور الانحراف.

والذي يعنينا من هذا كله هو ضرورة تنبه الخطيب إلى ما يموج من حوله من آداب ليكون على وعي بأهدافها ليفيده ذلك في ترتيب الأولويات فلا يعالج قضايا يتوهم أنها جديرة بالإثارة وهي ليست كذلك، ويكون التناول منه أيضا عن علم وإدراك بالشبه والأغاليط التي يتوسل بها إلى تركيز الباطل وليكون من

---

(1) ينظر أباطيل وأسمار – محمود محمد شاكر، الجزءان الأول والثاني

دعـواته أيضـا تشـجيع إنتـاج أدب إسـلامي يصـدر عن قـيمنا الإسلامية ويحتكم إليها، وينسج على منوال التصور الإسلامي للإنسان وللكون وللحياة، بهذا ستكون خطبة الجمعة في عمق العمل الحضاري الذي يجب أن تنهض به الأمة الإسلامية وهي تتأبى وتستعصي على الانسلاخ والذوبان والاستئصال.

وبعد،

فـهـذه جـوانـب مما يتعين على الخطيب أن يكون على بصيرة منه وهو يؤدي مهمته النبيلة تقربا إلى الله وقياما ووفاء بأمانة التبليغ وقياما بمسؤولية الكلمة.

وهذه الشروط التي أوردت ليست شروطا تعجيزية ولا هي من قبيل الإلزام بما لا يلزم وإنما هي على العكس من ذلك النصاب الأدنى الذي لا مندوحة عنه لخطيب يعيش عصراً تصطرع فيه أفكار متناقضة وتتواجه في مذاهب وحضارات مختلفة الروح والشخصية والمنهاج. وفي خضم هذا الصراع تكون الحضارة الإسلامية بحكم صمودها واستعصائها على المسخ أو الذوبان هي المستهدفة التي تتوق إليها السهام المصمية، فمن ثم لا يمكن أن

يكون الخطيب إلا على مستوى يؤهله للإسهام في تشكيل العقليات تشكيلا إسلاميا مستعينا بخبرته ومعرفته وإدراكه لبواطن الأمور.

والخطيب الإفريقي الذي يؤدي رسالته في هذه الرقعة من العالم الإسلامي لابد أن يستجمع من أدوات العمل ما يتطلبه الوضع الإفريقي الذي يتسم بتركيز قوى الضلال وتهافتها عليه وبتوفر شروط ذاتية داخلية مساعدة للغير وهي تتمثل في الجهل والفقر والمرض والتعصب العرقي وصراع الاثنيات وفي التبعية الثقافية واللغوية والاقتصادية وفي الانبهار بالغرب، وهذه الشروط الداخلية وذلك التكالب الخارجي كلها عوامل تقف ضد مسيرة الإسلام في القارة الإفريقية، والخطيب مرجو لأن يبدد هذه الظلمات الحالكة ويكسر تلك القيود والأغلال، ويهتك تلك السجف السميكة ليصل بمخاطبيه إلى عرض رؤية واضحة نقية مشرقة للإسلام ويقدمه لهم دينا صالحاً لترقية الإنسان المسلم ولاستشراف آفاق الغد مسدداً بالإسلام مؤيدا بكل قيمه وأخلاقه الضامنة للخير والفلاح ■





هذه جوانب مما يتعين على الخطيب أن يكون على بصيرة منه وهو يؤدي مهمته النبيلة تقربا إلى الله وقياما ووفاء بأمانة التبليغ وقياما بمسؤولية الكلمة.

ـ وفي خضم هذا الصراع تكون الحضارة الإسلامية بحكم صمودها واستعصائها على المسخ أو الذوبان هي المستهدفة التي تتوق إليها السهام المصمية فمن ثم لا يمكن أن يكون الخطيب إلا على مستوى يؤهله للإسهام في تشكيل العقليات تشكيلا إسلاميا مستعينا بخبرته ومعرفته وإدراكه لبواطن الأمور.

ـ وهذه الشروط التي أوردت ليست شروطا تعجيزية ولا هي من قبيل الإلزام بما لا يلزم وإنما هي على العكس من ذلك النصاب الأدنى الذي لا مندوحة عنه لخطيب يعيش عصراً تصطرع فيه أفكار متناقضة وتتواجه في مذاهب وحضارات مختلفة الروح والشخصية والمنهاج.

ـ والخطيب مرجو لأن يبدد هذه الظلمات الحالكة ويكسر تلك القيود والأغلال، ويهتك تلك السُّجف السميكة ليصل بمخاطبيه إلى عرض رؤية واضحة نقية مشرقة للإسلام ويقدمه لهم دينا صالحاً لترقية الإنسان المسلم، ولاستشراف آفاق الغد مسدداً بالإسلام مؤيدا بكل قيمه وأخلاقه الضامنة للخير والفلاح.